دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التاريخ و الفكر السياسي عند ماكيافلي
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر
الناشر:	مركز الإنماء القومي
المؤلف الرئيسي:	التريكي، رشيدة
مؤلفين آخرين:	الجوة، أحمد(مترجم)
المجلد/العدد:	ع 88,89
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1991
الشهر:	يونيو
الصفحات:	65 - 67
رقم MD:	433476
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التاريخ و السياسة، ماكيافلي، الفلسفة الحديثة، ايطاليا، العقل
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/433476

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

التاريخ والفكر السياسي عند ماكيافلي

رشيدة التريكي

يبدو لنا في إطار هذا الملتقى(*)، أن البحث في المعقولية الماكيافلية الناشئة عن العلاقة الشائكة بين العقل التاريخي والفكر السياسي مثيرٌ حقاً للإنتباه، ويستدعي منّا توقّفاً نظرياً لأسباب عديدة، أهمها، بالتأكيد، أن هذه المعقولية الماكيافلية تسمح في تاريخ الفكر العربي بمقاربةٍ جديدة كل الجدة، حدّدت حقل استقلالها عن التناول الديني للتاريخ والسياسة وعن التناول الفلسفي بصفة عامة.

ولا بدَّ من التذكير هنا أن ما خلّفه **ماكيافلي** من أسطورة، قد أدّى في آخر الأمر إلى الإحتفاظ من هذا الفكر بنظرية سياسيّة تقنيّة، رسمت حدود الحقل السياسي بعيداً عن الإعتبارات الأخلاقية والدينية والنظرية، إلى حد الإغفال الكامل للأساس، ونعني به تفكير **ماكيافلي** في التاريخ.

لقد كان لـ **ماكيافلي**، بوصفه رجلاً سياسياً[1] مارس طوال حياته المهنية وبصفة مباشرة آلياتها المختلفة، دقةَ الملاحظة في أحداث عصره، ممّا جعله يعتمدها في تفكيره. ولكنه أَوْلى كذلك اهتماماً خاصاً لقراءة التاريخ، لأن تأثيرَ التاريخ نظراً وعملاً في شؤون السياسة أمرٌ مؤكّد.

وقبل تقصّي نوعيّة التجديد في التصوُّر الماكيافلي للعلاقة بين التاريخ والسياسة، لا بدّ من التذكير ببعض الحقائق حتى لا نخطىء في تقدير عطائه وخصوصيّة مساهماته، وحتى لا نرى فيها قطيعة جذرية عن نمط تفكير علماء النهضة الأوروبية وفلاسفتها.

وليس من شكّ أن **ماكيافلي** ينتمي إلى حقبة زمنية متنوّعة، بدأ فيها الأفق الثقافي ينفصل عن الحضور الكليّاني للعقيدة الكَنَسية، ويندرج نحو علمانية متزايدة للخطاب السياسي وللسرد التاريخي. فلم تعد حجة السلطة الكنسية مقبولة مطلقاً، بل أخذت تتقلّص وتترك مكانها لنمطيّة جديدة تحدّدت بالعودة منهجيّاً إلى أصول الماضي الروماني الذي أصبحت له دلالة نموذجية هامة، فكان الإعتقاد في التجريب، وكانت هناك محاولة جادة للعقلنة في الممارسات الإجتماعية والإقتصادية.

وبهذا الإعتبار إذن، يكون **ماكيافلي** منخرطاً في عصره، مثله في ذلك مثل **كولوسيو سالوباطي** (Collucio Salubati) (1330-1406)، **وليوناردو برووني** (Luonardo Bruni) (توفي سنة 1444). وكان كل منهما إنسانيَّ المذهب، رجلَ سياسة ومؤرّخاً.

لقد فكّر هؤلاء المثقّفون الجدد لهذه الفترة، في أسس المؤسسات الرومانية القديمة، وحاولوا إعادة كتابة التاريخ بعيداً عن الطابع الإخباري الذي ساد القرون الوسطى. ورغم القرابة في المنحى السياسي فإن **ماكيافلي** تميّز عن هذين المؤرّخين من حيث محاولته التفكير في التاريخ والسياسة، ضمن علاقة تحدّد في آن واحد ماهية التاريخ بما هو صيرورة يمكن تعقلها، وخصوصية الحقل السياسي لفضاء تتداخل فيه الممارسة بالنظرية. وحتى نفهم طبيعة هذه العلاقة تتعيّن العودة إلى نصيّن مفيدين جداً: أولهما، مقدّمة الكتاب الأول للخطابات المتعلقة بالكتابات العشر الأولى لـ **تيت ليف** (Tite Live)، وثانيهما الفصل السادس والعشرون من كتاب «**الأمير**» وعنوانه: «التحريض على تخليص إيطاليا وتحريرها من البرابرة»؛ ويجب اعتبار مقدمة

(*) مداخلة أُلقيت في ندوة قسم الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، حول **المعقولية والتاريخ** 30 نوفمبر و 1 و 2 ديسمبر 1990.

الكتاب الأول من «الخطابات» في مستوى أول، تحذيراً ضدَّ ما تمكن تسميته العوائق الإيديولوجية أو الثقافية المرتبطة بسمات العصر، والتي قد تجعل تفهّم المشروع الماكيافلي أمراً شاقاً.

يكشف **ماكيافلي** إذن، مثلما هو الشأن في إهداء كتاب «الأمير»، عن طرافة مسعاه الذي يستدعي فهمُه الإبتعادَ عن التأويلات التي أصبحت تقليديّة مميِّزة لعصر النهضة، الذي كان ينظر إلى نفسه من خلال موقف عاطفي صرف وحنيني، أي بعودة تمجيدية لنموذج العظمة الماضية لجمهورية روما القديمة. كما يشكو من أن نموذجية العصور القديمة اقتصرت على مطالبة نرجسية تماماً، وبالتالي مطالبة عقيمة وطوباوية (بما أنها لا تكون إجرائية إلاَّ بالقدر الذي نؤمن بها)، وهي تتنزل في مجال التقريض والإقناع. فتقليد الماضي كما يلاحظ **ماكيافلي** لا تكمن قيمته إلاَّ في إيجاد سبل العلاج (ويا له من علاج تقليدي!)، أو لحكمة عملية تمكّن، في أقصى الحالات، من وضع حدّ للصراعات بين المواطنين.

وإذا تجاوز الأمر ذلك إلى الشؤون السياسية البحتة، حتى وإن كان مجموع القوانين المدنية الحديثة هو الوريث المباشر لأحكام المشرّعين القدامى (أي الذي يتواصل في الطبيعة والقانون وأسسه)، فإننا لا نأخذ بعين الإعتبار إلا نادراً، بل وقد لا نأخذ البتة، دروس العصور القديمة لحلّ مشاكل جوهرية من قبيل: كيف نفكر في الحاضر لتأسيس دولة أو جمهورية، أو لضمان النفوذ والمحافظة على السلطة، أو تنظيم جيش وطني، أو توسيع امبراطورية... إلخ.

هكذا، نتبين ترتيب الأولويات عند **ماكيافلي**، وهي ليست متمثّلة في تحديد النظام الأمثل، ولا في مسألة غاية السياسة، وتمجيد الفضيلة الرومانية (La Virtus Romana)، ولكنه يتمثّل بكل تأكيد في ما له علاقة بتأسيس الدولة ذات القوة والدوام في الوقت الراهن. وقد لخّص **ماكيافلي** سبب هذا التيه، في تشخيص عابر مفاده أننا لم نعد قادرين على قراءة التاريخ. وسبب هذا الإهمال الخطير يكمن حسب رأيه في وجود حالة وهن، والمقصود بذلك قصر النظر والعمى الإيديولوجي وجعل العصور القديمة تقوم بوظيفة الأسطورة. وحالة الضعف هذه كما كتب **ماكيافلي** «مردّها الأضرار الناتجة عن هذا الكسل المتكبر الذي يسود غالب البلدان المسيحية». وتتمثل نتيجته الأشد خطورة في عجزنا عن استخلاص «عبر التاريخ»، وتقليد الأقدمين عند الممارسة الفعلية لشؤون السياسة «كما لو أن السماء والعناصر والناس تغيّرت مواقعها». والحال، أن العالم يظلّ دائماً على ما هو عليه ويحتفظ **ماكيافلي**، في هذا الصدد، وفي مجال جهازه المفهومي بترسيمة بوليب الأناسيكلوز (anacyclose) التي ستتخذ إطاراً للوصف.

وهذه النظرية للتاريخ الدائري صالحة لبيان أنه في الواقع، وفي نظر المجموعة، فإن حصيلة المنافع والمضار نفسها تجوب مختلف المناطق وتتوزّع فيها بصور مختلفة (تبعاً لقانون الإنحطاط). ستوجد إذن على الدوام وفي الوقت نفسه في العالم، العديدُ من أشكال الحكومات التي تساوي ما بين درجات الفساد نفسها في الأنظمة، وهو ما يعني بكل بساطة أن تاريخ المدن القديمة (والمدينة الرومانية على وجه الخصوص) يسمح من جهة أولى بتوفير ميدان متميّز (بما أنه قابل للدرس) لتناول الوضعيات الحالية، ويمكّن من جهة ثانية من تشخيص ما يمكن وصفه بالفترة المثلى في دائرة درجات الإنحطاط، وهي فترة يتعين التدخل فيها مثلما يقع التدخّل أثناء عملية جراحيّة.

ولكن «**ماكيافلي**» يشخّص على الأصحّ دولةً تعيش حالة مرضية هي إيطاليا في نهاية القرن الخامس عشر، وكان الإيطاليون يعيشون تاريخهم بضرب من الاستيهام، ولم يكن بوسعهم حتى رؤية ما يجري أمام أعينهم. إنهم يحجبون معنى التاريخ، فما الحل إذن؟

ينبّه **ماكيافلي** إلى أن معرفته عصيَّةٌ، ثم يقدم الحل الذي يبدو للوهلة الأولى مثيراً للاستغراب ويتمثّل في قراره بالكتابة «بشأن كل كتب **تيت ليف** (Tite Live)، وكل ما كان ضرورياً لفهمها، من خلال المقارنة بين الأحداث الماضية والأحداث الحديثة. ويتعلّق الأمر فعلاً بمراجع معاصريه من المفكرين التاريخيين نفسها، ولكن مع فارق أساسي يجب إدراك قيمته.

ويمكّن التجديد في استخلاص ما يكون في التاريخ الحاضر متحكّماً في تأويل التاريخ الماضي لجعل تعقله ميسوراً، أي لإدراك نوع من المعقولية فيه، تسمح بتنظيم هذا الحاضر ذاته. كما أن هذه المعقولية هي التي تمكّن من تجسيد النظرية في ممارسة تُعَدُّ عقلانية، وهي التي تجد فيها المسألة التاريخية لوضعية إيطاليا الحاضرة حلاً لها.

وبعبارة أخرى (وتتعين هنا العودة إلى نصّ الفصل السادس والعشرين من كتاب «الأمير»)، فإن الحالة العاجلة التي تشهدها وضعية إيطاليا زمن **ماكيافلي** تستدعي عملاً وتعقلاً لحقل التاريخ (تاريخ روما والانتماء الشرعي لها)، لتوفير العنصر النظري الذي سيرسم الإطار الملائم لممارسة سياسة لم تعد تتوافر لها البتة المراجعُ المناسبة. وبالفعل، وفي الوقت الذي يشهد القرن الخامس عشر

تحوُّلاً اجتماعياً واقتصادياً يقطع الصلة بالبنية الإقطاعية وأنساق تمثّلاتها، أي في الوقت الذي يشهد انتقالاً عميقاً في مكان المرجع وبروز قيم جديدة (أخلاقية، تجارية)، نلاحظ انعداماً لجهاز نظريّ يساعد على فهم كل ذلك.

وإذا كان من الملحّ جداً أن المرحلة التي كان مفروضاً تقديمها إطاراً لعقلنة كل هذا الأمر، كانت في أشد أحوال سوئها، إذ إنها كانت في أقصى النقيض مما كان يجب أن تكون عليه.

ففي الفصل السادس والعشرين من كتاب «الأمير» تُقدَّم إلينا إيطاليا مجزَّأة، مهددة من طرف القاطنين وراء الألب (Ultramontains) الذين حققوا وحدتهم، ضعيفة بسبب لا أخلاقية كنيستها. فعلاج الحاضر يحتّم إذن توحيد إيطاليا بشكل سريع ومثالي: بسرعة، لأن الظروف ملائمة لتدخّل سريع؛ وبشكل مثاليّ بفضل خبرة الممارس الماهر (المحنّك) **ماكيافلي** الذي يعلم ـ مستعيناً بالطريقة المقارنة ـ توظيف جملة القواعد التي تسمح بإرساء دولة قوية يتطلبها الظرف التاريخي. وفي هذا المجال، يتشكّل كيان التاريخ بوصفه حقل المعقوليات الخاصّة بالتفكير في طبيعة الحدث السياسي بمواجهته في عديد الحالات التي ينمّيها التاريخ باعتباره تواصلاً معقولاً. لذا، فإن السلطة السياسية لا تدرك في هذه المرحلة إلاّ حقلاً مستقلاً، لا يخضع لأي مبدأ مسبق مِن مبادىء الشرعية، وهي لا تجد تبريرها إلاّ بصيغتها الفعلية التي تجعل علاقة الحاكم بالمحكومين ممكنة ودائمة.

إن القواعد التي تسمح بها المواجهة بين التاريخ الحاضر والتاريخ الماضي تجيب عن أسئلة دقيقة فتكتسب من ثمة منزلة أُسٍّ عقلاني. وليست هذه الأسئلة غير تلك المكونة لعناوين فصول كتاب «الأمير» وهي:

ـ كيف يمكن حكم الممالك التي كانت قبل احتلالها تعيش في ظل قوانينها الخاصة؟[2].

ـ كيف يمكن للحاكم الاستيلاء على ممالك جديدة بواسطة جيوشه الخاصة وبفضل نبوغه؟[3].

ـ ما هو الحل الملائم في المجال العسكري؟

ـ كيف يمكن الاستيلاء على ممالك جديدة بواسطة جيش الغير؟[4]... إلخ.

إن فعل التاريخ في علاقته بالسياسة يعود إذن في آخر المطاف إلى دراسة أسباب التغيّر الإجتماعي السياسي، والقواعد التي تسمح بتوجيه الأوضاع وتنظيمها، والقدرات والخصال المميزة للقادة الأكفّاء.

والدرس الذي يُستخلص من التاريخ بالنسبة إلى إيطاليا في حياة **ماكيافلي**، هو ما يجعل معقولاً تدخل أمير ماهر يوحّد كل هذه المقاطعات، تحت سيطرة دولة قوية ذات دوام، يدعمها جيش وطني وحركية اجتماعية ناجمة عن الصراعات بين الشعب والنبلاء. وهذه الحالة ـ بالنسبة إلى **ماكيافلي** ـ تمكن قراءتها في كتاب **تيت ليف**.

رشيدة التريكي
تعريب: أحمد الجوة

الهوامش والمراجع

(1) كان من سنة 1498 إلى سنة 1513 سكرتيراً ثانياً لمقاطعة فلورنسا، ثم مديراً للمستشارية الثانية، وسكرتيراً لمجموعة العشرة للحرية والسلام، وأخيراً مستشاراً للتسعة المكوِّنين للجيش الشعبي.

(2) هذا هو عنوان الفصل الخامس كما جاء في تعريب خيري حمّاد.

(3) هذا عنوان الفصل السادس وهو في تعريب خيري حمّاد: «الممالك المحتلة حديثاً بقوة السلاح الخاصّ وبالقدرة والكفاءة».

(4) نجده في تعريب خيري حمّاد الفصل السابع بعنوان: «الممالك التي يتمّ احتلالها بمساعدة الآخرين أو بمساعدة الحظّ».